أعلام الأدب

دراسات إسخيلوس

للأستاذ دريني خشبة

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

٤٥٦ — الأورستية

هذه هي الثلاثية الواحدة التي وصلتنا سليمة من إسخيلوس وقد أخذ كل مادتها من هومر ، وأجاممنون هو بطل حلقتها الأولى وباسمه تدعى ... والمأساة تبدأ من ذلك اليوم المشئوم الذي ضحى فيه أجاممنون بابنته إفجنيا حيث ذبحها لتتحرك الريح وتحمل الأسطول إلى طروادة كما مر بك في هوميروس ... فلما علمت زوجته كليتمنسترا — أم الفتاة — بما وقع لابنتها من الغدر ، ولم تكن تعلم بهذا التدبير من قبل ، بل قيل لها إنها ذاهبة لعقد قرانها على أخيل بطل أبطال اليونان ، ثارت ثائرتها ، واعتراها حال من الهم والحزن أخرجها عن إنسانيتها فأبعدت عنها كل معالم الحياة ... حتى ابنها الأوحد أورست لقد نفته بعيداً عنها ، وعاشت وحدها في قصر البلوبيد الرهيب ، واضطرمت في قلبها نار الحقد على زوجها القاسي ... ثم وصلت أسبابها بأسباب إيجستوس أحد ذوي الثارات على بيت أجاممنون ، فوافق شنّ طبقة كما يقولون، وألفت الثرات بين قلبيهما فشاعت عن علائقهما الشائعات .. ولما وضعت حرب طروادة أوزارها وعاد أجاممنون مع تلك الفتاة النَّبيَّة ابنة [1] بريام ، دبرت له زوجته تلك القتلة المشئومة التي ذهبت بروحه وروح فتاته إلى هيدز

أما الحلقة الثانية الـ (خُوَاَفُرُوَا) أو حاملات الخمر المقدسة فتقع حوادثها بعد ذلك بسنين عدة كانت الملكة وعشيقها يحكمان آرجوس طوالها ... فلما شب أورست استأذن ملك فوسيز في العودة فأذن له وصحبه صديقه بيليدز ... ووصل إلى مقابر آرجوس حيث وجد أخته إلكترا تصب الخمر على جدث أبيه لأن أمها رأت في المنام أنها تلد ثعباناً ثم تأخذه في حضنها ، فأرسلت بنتها لتصب الخمر قرباناً إلى روح أجاممنون ... ويهرب الشاب

(١) إسمها كاسندرا

أخته فيعرفها بنفسه وتكون قد صلت للآلهة على ثرى أبيها أن ترسل إليها أخاها ، فتكون مفاجأة جميلة ، ثم يوصيها أورست بكتمان الأمر حتى ينتقم لأبيه ... ويدخل القصر في هيئة تنكرية فلا تعرفه أمه ، ثم يأخذ في سرد قصة خواها أن أورست قد مات فتتظاهر الأم بالحزن ثم تدخل مخدعها ، ويدخل أورست وصديقه حجرة الأضياف ... وتذهب مرضعة لتدعو إيجستوس ليعلم ما قال الرسول عن وفاة أورست فما يكاد يصل إلى القصر حتى يسمع من الداخل وهو يصرخ ويجود بنفسه ... لقد قتله أورست !! ... وتهرع كليتمنسترا لترى ماذا حدث ، لكنها تعاجل بضربة شاطور (بلطة) فتتلفت فترى أورست عند جثة عشيقها ، وهي مع ذاك تنسى آلامها وتنحني فتبكي فوق جثة إيجستوس ... ثم يأتي أروع مشاهد إسخيلوس الدرامية ... فالأم حينما تعرف أورست لا تبالي الدم المتدفق من جرحها ، بل تكشف عن ثديها وتُعيّر الابن بكفرانه هذا اللبن الذي غذاه صغيراً ، ثم تنذره بملاحقة ربات العذاب إياه حتى ينتقمن منه على جريمة قتل الأم وهي أشنع الجرائم في الشرع اليوناني ، ويهتز أورست ، ثم تعروه نوبة من الجنون ، وتتراءى له ربات العذاب فيذعر ، ويفر من وجوههن ليحتمي بهيكل الإله أبوللو في دلفي .

وفي الحلقة الثالثة (يومنيدز) أو ربات العذاب ، يتعلق أورست بأستار هيكل أبوللو ضارعاً إلى إله الشمس أن يحميه، وتكون الكاهنة وسنانة فتستيقظ مفزّعة مروّعة ثم يظهر الآله أبوللو نفسه فيطمئن أورست ويشمله بحمايته ويأمره أن ينطلق إلى أثينا حيث يعرض قضيته على ربّتها ميزفا (پالّلا أثينا) فيصلي أورست وينطلق إلى حيث أمره أبوللو وتبقى ربات العذاب فيدخل شبح كليتمنسترا وتأخذ في تحريض الربات فيتنتّين قليلاً ثم يطردهن أبوللو . . . ويتغير المنظر فنكون في أثينا في هيكل ميزفا وقد تعلق أورست بأستار المذبح وقد أخذت تنوشه ربات العذاب فتبدو ميزفا وتذودهن عنه ، ثم تستمع إلى شكواه . ويكون في المعبد جماعة من المحلفين وينهض الآله أبوللو ليؤدي شهادته ويدلي برأيه فيقرر أن الإنسان ينتسب إلى أبيه لا إلى أمه ؛ ولذا فهو مرتبط بوالده قبل أن يرتبط بوالدته . . . وبعد أن تسمع ميزفا إلى آراء الآخرين تنهض هي فتعلن رأيها ثم تجلس ويأخذ المكلفون في (فرز) الأصوات وتكون النتيجة متساوية بغير ترجيح فيحدث شيء من الهرج في قاعة العدالة وتتبرم ربات

العذاب لتدخل أرباب أقل منهن مرتبة فى أخص أمورهن، فتنهض ميزفا وتأخذ فى تلطيف سورتهن بفصاحتها المعهودة وتهتف بهن « أن أسمى واجب الآلهة هو نشر السلام بين بنى الإنسان ! » وتمدهن بإقامة مأوى عظيم لهن فى هضبة إيرس فيهدأن ويحتفى الجميع بذهابهن إلى مأواهن فى حفل رهيب

هذه هى أرفع درامات إسخيلوس بل أرفع درامات الأدب اليونانى إذا استثنينا درامة پرومثيوث للشاعر نفسه ... وقد سخر فيها الشاعر بهذه الشريعة العجيبة التى تنافى العدالة المطلقة التى جعل لها الفوز والغلبة فى النهاية ... وكان إسخيلوس ماهراً فى تلك الدرامة إلى آخر حدود المهارة فقد استدرج اليونانيين حينما أراد إصلاح وجهة نظرهم إلى تلك الأغوال التى يدعونها ربات العذاب حتى جعلهم يؤمنون أنها ينبغى أن تكون لخير الإنسانية لا لذعرها، ولنشر السلام لا لتعميم الذعر والأذى. وهكذا استطاع إسخيلوس أن يبشر بدين جديد من دون أن يحدث ثورة ، وكان جل إيمانه بسيادة عليا تهيمن على الكون وتسير به إلى الكمال كما سنرى فى پرومثيوث

٧ — *پرومثيوث* :

أخذ إسخيلوس موضوع ثلاثيته من أسطورة پرومثيوث الخالدة وتتلخص فيما يلى :

بعد أن فرغ إپروس (كيوپيد) من توشية الأرض وزخرفتها بالنبات ، عمّرها بالحيوان ، ثم دعا إليه الإلهين پرومثيوث وإپيمتوث ليخلقا فيها حيواناً راقياً تكون له السيطرة على سائر صنوف الحيوان ويسمياه (الإنسان) . فلما صنعاه سألا إپروس أن ينفخ فيه أنفاس الحب (روح الحياة) كما سألا ميزفا أن تنفخ فيه من روحها (روح الحكمة). فلما دبت الحياة فى هذا المخلوق العجيب زُهى پرومثيوث وشاعت فيه الكبرياء واعتزم أن يهدى إلى الإنسان منحةً جزيلة تفتح له أبواب المدنية وترقى به فى مدارج الحضارة ... وكانت النار إلى ذلك الحين حقاً خالصاً للآلهة وكان لهم دون غيرهم (امتياز) استعمالها، فاعتزم پرومثيوث أن ينسرق إلى الأولب ليحضر للإنسان جذوة من النار المقدسة فأحكم تدبيره وتنفل سيد الأولب (زيوس) وسرق الجذوة ثم آب إلى الأرض دون أن يشعر به أحد ... ومضى حين من الدهر ، وتلفت زيوس من عليا سمواته فشهد النار تتأجج فى أطراف الأرض فهاج هائجه ، وأقسم ليعذبن السارق عذاباً شديداً . ويعرف أن السارق هو پرومثيوث فيأمره ثم يذهب به فى أقل من لمح البصر إلى جبال القوقاز حيث يقيده ويربطه بسلاسل وأصفاد فى قمة جبل هناك ويسلط عليه باشقاً من جوارح الطير فيظل ينهش كبده نهشاً شديداً ... وهنا يبدأ إسخيلوس الحلقة الأولى من درامته .. فهذا پرومثيوث مُصفَّداً بالأغلال صابراً لأنكى ألوان العذاب ، ينهش الباشق كبده نهاراً ثم ترقأ جراحه ليلاً وتنمو الكبد، فإذا أصبح عاد الباشق إلى نهشه وتعذيبه وهكذا دواليك .. لكن پرومثيوث إله فهو لا يموت ، ثم هو لا يقهره هذا العذاب بل هو يصبر له فى سبيل سعادة الإنسان الذى خلقه وحضّره وجلب له النار وعلمه الفنون ، والإنسان مع ذاك شاكر له ذاكر أياديه فهو يصلى له ويقنت ، والفتاة يو البائسة المعذبة التى سلطت عليها حيرا زوجة سيد الأولب هذا الوحش الفظيع آرجوس والذبابة المؤلمة تلدغها وتسومها من العذاب ألواناً ... ها هى ذى واقفة بجانب پرومثيوث تواسيه وتتوسط له عند التيتان ليستغفروا له سيد الأولب فلا يغفر له ، لأنه قوى مجنون ليس فى قلبه شفقة ولا يعرف فؤاده العدالة ... ويصبر پرومثيوث ثم يصبر ، ولا يرضى أن يخذل الإنسان لأن الإنسان يصلى له ولا يني عن عبادته ... وفى الحلقة الثانية يذهب هرقل بن سيد الأولب فى إحدى مجازفاته فيشهد پرومثيوث مصفداً فى قُنّة الجبل والطير تنهش كبده ، فينقض على الباشق الجارح ويقتله ، ويرد إلى پرومثيوث حريته . فينطلق هذا الإله الطيب ويلقاه الناس مسبحين بحمده فرحين مستبشرين . . . وفى الحلقة الثالثة (پرومثيوث حامل النار) يصف إسخيلوس احتفاء الأثينيين بالإله الذى ضحى نفسه واحتمل الآلام فى سبيل الإنسان

هذه خلاصة سريعة لأعظم درامات إسخيلوس ، وپرومثيوث هى درة فلسفية أعجب بها الشعراء فى كل العصور ، وقد عارضها شلى الشاعر الانجليزى بمنظومة رائعة جرى بها فى أذيال إسخيلوس ... وقد كان إسخيلوس لاذعاً فى هذه الدرامة ، فقد سخر بهذا الإله المتنطرس زيوس الذى كان يكره الإنسان ويناوئه ولا يريد له الخير الذى أراده له پرومثيوث . وجاع فلسفة إسخيلوس فى هذه الدرامة أن القوة التى تهيمن على هذا العالم يجب ألا تكون قوة مجردة لا عقل لها ، بل يجب أن تتضافر القوة والحكمة بحيث لا تطغى إحداهما على الأخرى لخير الإنسانية وعمار الكون ،